

الدولة الصليحية

العهد الأول

الملك على الصليحي

كانت اليمن في القرنين الرابع والخامس الهجريين في حالة من التدهور والتفكك . ففي خلال تلك المدة استولى الموالي على الأقاليم اليمنية . واستبدوا بالحكم ، وعاثوا فساداً وظلماً . وبالرغم من أن « الحسين بن سلامة » تمكن في مدة ولايته من الحفاظ على دولة بني زياد ، فإن استبداد الموالي الحبشيين بالحكم مكنهم من تأسيس الدولة النجاشية في زبيد سنة ٤١٢ هـ على أنقاض دولة بني زياد ، فكانت لها تهامة وزبيد ، وكان استيلاؤهم على تلك الأمكنة من الأسباب التي حفزت العرب إلى الانتفاض وعدم الخضوع لدولة الأحباش ، فكان من جراء ذلك أن تقطعت أوصال البلاد بعد موت الحسين بن سلامة . وأصبحت كل منطقة تخضع لنفوذ أمير ، وعمت الفوضى المناطق ، وأعلن العصيان في القلاع والحصون . والاستقلال في المناطق والأقاليم . فكان مخراف

جعفر يضم جبلة . وإب . والعدين . والمذبحرة . وذى سفال .
 ومخلاف المعافر يضم تعز وجبا وغيرهما . ومخلاف الجند
 وحصن السمدان لآل الكرندى . وكانت لهم مكارم ومغافر
 وسلطنة ظاهرة . أما عدن وأبين ولحج وحضر موت والشحر
 فقد استولى عليها بنو معن سنة ٤١٢ هـ . وتغلب أسعد بن وائل
 على مخلاف وحازة ومن مدنه شاطح . وامتلك بنو عبد الواحد مخلاف
 يربوع . وأهم مدنه الغممد وبُرع وحصن مسار . واستولى
 بنو أصبح على حصون حب ، والشحر والسحول . ثم استولى
 على حصن وصاب ومخاليقها قوم من بكيل ثم من همدان .
 من هذا نرى أن اليمن لم تكن فيها وحدة سياسية تجمع
 شملها تحت لواء واحد ، بل كانت إمارات صغيرة متفرقة
 يأكل القوى منها الضعيف ، أو بلغة أصح قل : إن السلطة
 كانت موزعة بين الأمراء والزعماء المتباغضين المتناافرين ،
 وجميعهم لم يكن يربطهم ببغداد إلا رباط إقامة الخطبة للخليفة
 العباسي ، وضرب السكة باسمه ، وإعلان الولاء له
 ولو بالظاهر .

هذا ... ومن الجدير بالذكر أنه من سنة ٤٠٥ إلى سنة
 ٤٤٨ هـ عم الحراب صنعاء وغيرها من مدن وبلدان اليمن
 بسبب الخلافات والنزاع والظلم وفساد الأحوال ، وتوالى على

العاصمة « صنعاء » الدمار وقل الخير، واضمحلت المدينة حتى قيل إن دورها أصبح عددها ألفاً بعد أن كان مائة ألف .

في هذا الجو المكفهر الحالك المضطرب : وفي تلك الأحوال السياسية المتقلبة ظهر « على بن محمد الصليحي » رأس الأسرة الصليحية التي تنتسب إلى قبيلة الأصلوح من بلاد حراز . وكان على كما وصفه ابن الجوزي في كتابه « مرآة الزمان » « شاباً أشقر اللحية . أزرق العينين ، وليس في اليمن . في ذلك الوقت . من يماثله في ذلك » . وكان والده القاضي محمد الصليحي مسلماً سنياً شافعي المذهب حسن السيرة مطاعاً في أهله وجماعته . لا يخرجون عن أمره ولا يعصون قوله . أما المؤرخ عُمارة فقال : كان أهل حراز أربعين ألفاً يدينون له بالطاعة .

نشأ على نشأة طيبة . في بيئة عربية عريقة : لها تقاليدها في الأخلاق الفاضلة والعادات الطيبة السمحة : وقد أورد عمارة في تاريخه أنه قد ظهرت عليه مخايل النجابة ، ودلائل الفضل والعزة وطموح النفس . ويروى أنه أقام يحج بالناس على طريق السراة والطائف خمسة عشر عاماً . وكان الناس في أول ظهوره يقولون له : قد بلغنا أنك ستملك اليمن بأسره ويكون لك شأن ودولة .

إن أولى فتوحات علي الصليحي كانت استيلاءه على مدينة زبيد ، وفي تلك الفترة أحب الأمير الشاب ابنة عمه السيدة الحرة الأميرة أسماء بنت شهاب الصليحية ، وقد أورد المؤرخ عمارة في تاريخه قصة زواجها فقال :

كان علي باب زبيد من داخل السور دار رجل من الحبشة يقال له « فرج السحرتي » وكان من أهل الفضل والأخلاق الرفيعة والصدقات والمعروف ، فخرج ذات ليلة فمر برجل يقرأ القرآن ، فسأله عن العشاء ، فأنشد قول الشاعر المتنبي :

من علم الأسود المخصى مكرمة أعمامه البيض أم أخواله الصيد؟!
فأخذه الحبشي وطلع به إلى أعلى مكان في داره ، وأكرم مثواه ، واستخبره عن سبب قدومه إلى تهامة ، فقال علي الصليحي :
إن لي عمًّا يقال له شهاب ، وله ابنة يقال لها أسماء ، قليلة النظير في الجمال ، معدومة المثل في العقل والأدب . وقد خطبتها إليه ، فاشتط علي في مهرها ، وأمها تقول :
لا تزوجها إلا بعض ملوك همدان بصنعاء ، أو أمراء بني الكرندي ،
بمخلاف جعفر ، وقد استاموا على من المال مبلغاً لا قدرة لي عليه ،
وأنا متوجه إما إلى بني معن بعدن ، وإما إلى بني الكرندي بالمعافرة .

وهنا يقول عمارة : إن السحرتى دفع له مالا جزيلا أضعاف ما أذى . وجهاز العروسين بجهاز يحتفل به المملوك لعقائهم . وأعادته إلى عمه حيث زوجته أسماء .

وذكر الأزدي في كتابه الدول المتقطعة قوله : وكانت أسماء من أعيان النساء . وكان الصليحي يثق بها ثقة عمياء لكمالها ، وقد كان يوكل إليها أمر تدبير الدولة ، ولم يخالف في أغلب أمورها . ويجلبها إجلالاً عظيماً . وكانت إذا حضرت مجلساً لا تستر وجهها عن الحاضرين . وفوق كل هذا كانت من حرائر النساء .

وزاد على قوله : وكانت من الكرم والسؤدد . تمنح الجوائز السنوية للزيارة للشعراء . والصلوات الواسعة في سبيل الله تعالى وفي سبيل الخير والمروءة . بحيث يمدح أولادها وإخوتها وبنو عمها بمفاخرها .

ونعود إلى ما قبل هذا لنقول : إنه لما انتقلت رئاسة الدعوة الإسماعيلية في اليمن إلى الداعي سليمان بن عبد الله الزواحى شرع يلاطف القاضى محمد الصليحي والد على ، فكان يذهب إليه كثيراً لرئاسته وسؤدده . وصلاحه وعلمه . وكان سليمان كلما ذهب إلى القاضى . ورأى ولده علياً . لاحظ عليه مخايل النجاسة والذكاء . ودلائل الفضل

والشجاعة : وهو في أوان الاستجابة للدعوة الإسماعيلية :
وكان يومئذ دون البلوغ : فأخذ الداعي يتصل به . ويطلعه
على ما عنده من أخبار وآمال ومشروعات كبار . حتى استماله :
وغرس في قلبه ولبه العلوم والآداب ومحبة المبادئ الإسماعيلية .
ولما اطمأن الزواحي لرسوخ تعاليمه في نفس تلميذه على
جعله خليفته في الدعوة بعد أن وافق الإمام الفاطمي المستنصر
بالله على ذلك . وبهذا تمكنت الدعوة الإسماعيلية في اليمن
من إحراز نصر باهر في مجال الدعاية بأن ضمت إلى صفوفها
شباباً من خيرة شباب اليمن ، ومن أشدهم غيرة وحماسة .

أجل ... إن الداعي الإسماعيلي سليمان الزواحي تمكن
بما أوتي من قدرة وسعة علم . ولباقة فائقة : وطلاوة في الحديث ،
من إدخال الشاب على الصليحي في الدعوة . وإقناعه بضرورة
الحرص عليها : كما نعتقد أنه لم يلاق صعوبة في جذب
إليه بالنظر لما أبداه على من رغبة صادقة في الاستمرار والتقرب
من أستاذه المفيد ، وكل هذا بفضل فطنته وذكائه الذي ظهر
في سن مبكرة ، مضافاً إلى ذلك أن عزم على واجتهاده وحرصه
على ألا يفلت منه هذا الأمر جعله ينكب على دراسة الدعوة
التي زوده بها الزواحي . وآلت إليه بعد موته . وكان
قد أوصى بها مع مبلغ كبير من المال تركه له . وكل هذا

يدل دلالة واضحة على نضج فكرة الدعوة الإسماعيلية وأصوها وتعاليمها في عقل هذا الشاب الذي قدر له فيما بعد أن يلعب دوراً هاماً في تاريخ بلاده اليمن . ومما هو جدير بالانتباه أن ذكاء على الصليحي كان من أهم العوامل في إنجاح مشاريعه ، ووصوله إلى مركز الزعامة . فلم يكد يبلغ الحلم حتى تضلع في معارفه التي بلغ بها . وبالجد السعيد . غاية الأمل البعيد ، فأصبح كما قال عمارة : عالماً فقيهاً في الفلسفة ، مستبصراً في علم التأويل ... وقد أدت معارفه إلى أن ينهج نهجاً جديداً ، وأن يسلك طريقاً تخالف طرائق من سبقه من الدعاة في اليمن في بث دعوته ونشر مذهبه . فاتخذ ميدان الحج حقلاً لغرس مبادئه وتنميتها ، وصار يحج بالناس عن طريق السراة والطائف نحواً من خمس عشرة سنة . فسار ذكره في البلاد على لسان الخاصة والعامة .

ومن الملاحظ أن هذه المدة الطويلة التي مرت بين موت الزواحي إلى قيام الصليحي بثورته في مسار تقرب من خمسة عشر عاماً . فهي بلا شك كافية لصقل على وإثراء معارفه وتجاربه . وتكوين جماعة تدين له بالطاعة والاحترام والإخلاص .

ولا يخفى أن طلاب السلطة يراعون دائماً جانب العامة .

فهم السواد الأعظم في كل مجتمع يحسبون لهم كل حساب ،
ويتقربون إليهم بما يرضيهم . ولما كان الدين هو جامعهم
الكبرى ، ومن أكبر أسباب سعادتهم . تمسك الصليحي
بالعقيدة الإسلامية وبالمثل العليا . ولم يكن يبوح بعقيدته
الأصيلة إلا لمن يثق به ، ولم تكن دعوته في أول الأمر للأمراء ،
وعلية القوم وأصحاب المصالح . لأنه كان يعلم تماماً أن هؤلاء
سيحاربونه بأي حال من الأحوال . ولكنه اتصل بالعامّة
والمتحمسين منهم للدين . وهم طبقة الحجاج ، فكأنه دخل
بدعوته في هذا الميدان متشجّحاً ومتجملاً بالدين وبمحاسنه .
وهو متحقق أنه لا بد من أن يستميل إليه أعواناً أوفياء ،
ولو طال به الزمن ، مادام متمسكاً بالدين . ولما كان الصليحي
من طلاب السلطة المطلقة وجد أنه لا يمكنه أن يستغنى عن
العامّة ، لأنهم السواد الأعظم في الرعية . وبهم تجبي الأموال ،
ومنهم يتألف الجيش . ومن استطاع كسب ثقتهم وجذب
قلوبهم ملكوه . ولا يجتذب قلوب العامّة في تلك العصور
مثل الدين . فإذا اجتمعت السياسة والدين تمت وسائل السلطة
وخاصة في محيط عرف عن عامة أهله شدة تمسكهم بأهداب
الدين ومحافظتهم على التراث القديم .

أجل ... عرف على الصليحي هذا كله وعرف أنه

لا بد له من التطلع إلى آماله من زاوية خاصة ، فدأب على تحقيق هذه الآمال بصبر وتؤده ، وهو يعلم أنها كفيلة بنجاحه ووصوله إلى تحقيق أغراضه . وجاء موسم الحج في سنة ٤٣٨ هـ ، فكان بمثابة عهد جديد في إنجاح حركة الصليحي : حيث بايعه ستون رجلاً من قبيلة همدان ، وعاهدوه على الطاعة والموت أو الظفر بقيام الدعوة . وعلم كل واحد منهم أنه جندى في سبيلها يبيع نفسه ببيع السماح عندما تأزف الساعة الرهيبة . وتضافرت القوى على نصرة الدعوة بالأنفس والمال ، ويعتد كل هذا نصراً أكيداً للدعوة الإسماعيلية من غير شك ، وخاصة إذا عرفنا أن هؤلاء الذين بايعوه إنما كانوا في عزلة ومنعة من قبائلهم . وهذا لا يتعارض مع ما ذكرناه من اعتماد الصليحي على فئة العادة ، وبخاصة أن أكثرهم كانوا من قبيلة همدان القوية العزيزة الجانب التي بلغت شأواً بعيداً في اليمن ، وهابتها جميع القبائل وحسبت لها حساباً ؛ وقد كان هذا الانضمام عاملاً كبيراً ومشجعاً لمن كان متردداً من المستجيبين ، وباعثاً للكثيرين من القبائل الأخرى على الانضواء تحت لواء الدعوة الإسماعيلية . وهنا نستطيع أن نقول : إن على الصليحي بعد أن وصل إلى هذه النتيجة ، وبعد إحرازه هذا النصر الأكيد ، تمكن من تكوين جماعة مخلصه وإن تكن صغيرة . وقد

أصبحت فيما بعد نواة لقوة كبيرة . فكان أول عمل قام به هو استيلائه على حصن مسار وتعميره وجعله مركزاً لدعوته وقاعدة لحروبه . ولكن هذا المشروع كان يقتضى الحيلة والاستعداد . ولهذا أخذ يستعد للثورة ويهيئ كل شيء . وساعدته الظروف إلى حد كبير . حتى كون جيشاً قوياً من بطون همدان ، وهو وأنصاره مقتنعون بصدق الوعد الذى بشروا به : واستقر فى قلوبهم أن مواجهة الصعاب تقتضى الشجاعة والثقة بالله وبالإمام الذى وعدهم بالنصر الأكيد أينما توجهوا .

ولقد بذل الصليحي وأصحابه جهداً كبيراً لجمع الكلمة وتوحيد الهدف . فتمكن بفضل ما أوتى من شخصية قوية نادرة أن يتغلب على هذه المشكلة بأن جعل أتباعه يعتقدون أنهم يحاربون لنصرة الإمام وإعلاء كلمة الله ، وليس لأمر من أمور الدنيا ، فكتب له ما تمنى من التوفيق . وكتب إلى إمامه بمصر الخليفة المستنصر بالله يطلعه على عزمته وما قرره ، وأخذ رأى مستشاريه وأعوانه ، وعاهد أصحابه ، ومن صحت فى نفوسهم دعوته ، على الوفاء وتطبيق سنن العدالة . وتشاء الظروف أن تمهد له الأسباب فيعقد اتفاقاً مع الهمدانين على الوصول إليه فى يوم معلوم .

وعندما شاع الخبر في أرجاء اليمن بأنه يستعد للثورة والتمثال : وأنه ينتظر مساعدات وأوامر الخليفة الفاطمي الإمام المستنصر بالله . ازدادت نفمة الأعداء على أهل دعوته وأتباعه . فوثب « ابن جتهور » صاحب لماب في حراز على الإسماعيليين الذين بناحيته . وأسر القاضي ملك بن مالك الحمادي وعدداً كبيراً منهم . فضاقت الأمور على الصليحي وكان ينتظر أن يكون جواب الإمام الفاطمي المستنصر بالله موافقاً ومشجعاً . لأنه لا يعقل أن يعارض بحال من الأحوال أمراً يستهدف نشر دعوته وإعلاء كلمته ، وبخاصة أن ذلك لن يكلفه إلا الموافقة وتشجيع الطالبين على الاستمرار في العمل ومباركتهم . ولكي يبرهن الصليحي على صحة حلمه أمام المستجيبين له لدعوته تفاعل بالنتيجة ، واستبشر بذلك ، وأظهر الفرح وقويت عزيمته . وبث هذه الروح في قلوب أتباعه وجد في الاستعداد لتنفيذ خطته : فأرسل إلى أهل دعوته وأنصاره أينما كانوا رسلاً يحثهم على الوصول إليه : كما أخذ يبتاع العدة والعدد ، ونخف لمقابلته كبار أهل الدعوة في نواحي حراز . وهم يستعدون لحوض المعركة المصيرية . ووافاه من أراضي يام من همدان . ومن نواحي صنعاء ، ومن أرض حمير ثلثمائة رجل عدا من جاءه من نواحي حراز ، فلما صاروا

بحضرته أطلعهم على ما عقد عليه العزم : وطلب إليهم أن يوافوه في يوم معلوم . وأخبرهم عن عزمه على عمارة مسار ، وإعلان دعوة الإمام الفاطمي المستنصر بالله . فوافقوا ، واستقر رأيهم على الجهاد . وأيقنوا بالظفر والغلبة . وجمعوا ما استطاعوا من العدة . وتواصوا ببذل النفوس والأموال في طاعة الله ورسوله والإمام . وبدأ الأغنياء يرسلون الأموال إلى الصليحي لتمويل الثورة وشراء الأسلحة . ولما تمت الاستعدادات والتجهيزات أرسل أربعين رجلاً من هوازن ، وأمرهم أن يسيروا إلى مسار وأن يلزموا ذروة الجبل . كما أمرهم أن ييضموا وجوههم شطر صعفان . بعد أن علم أن أهل مسار قد تأهبوا لقتاله وحصنوه من كل جهة ، وقد علم بذلك الصليحي عن طريق بعض أعوانه الذين تسللوا إلى قمة مسار ، وعرفوا ما يجري هنالك ، فعادوا وأخبروه . وهنا رسم خطته الاستيلاء على قمة هذا الجبل المنيع الذي يعد من المواقع الاستراتيجية ذات الأهمية الحربية في اليمن .

وفي سنة ٤٣٩ هـ جد في السير . وكان قصده احتلال الموقع المشار إليه . وعندما وصل إلى عُبْرَى سهام طمع أهل مسار في محاربتة في هذا المكان ، ولكنهم لم يتمكنوا ، فاتجهوا إلى قمة الجبل ليعتصموا بها ، فوجدوا أن أهل هوازن



قد ماكوها . فاضطروا إلى الحرب . وصعد الصليحي وملك
 الجبل . ونشر على ذروته أعلام الإسماعيليين دون أن يشتبك
 مع أحد في قتال . ولكن لم ينتصف ذلك اليوم حتى أحاط
 به عشرون ألف محارب جاءوا من مختلف الجهات وأنحاء
 البلاد لقتاله . وطلبوا إليه النزول . وهنا تجلت حكمته وعقله
 وبعد نظره بالأمور وبالسياسة ، فقال لهم : إننى لم أقدم
 على هذا الأمر إلا لكى أحرس لكم الجبل خوفاً من أن تأتى
 قوة خارجية وتستولى عليه ، والآن فإن شئتم نزلنا وتركناه ،
 وإن شئتم كنا له الحراس الأمناء ، ففنع الرجال المحاربون
 وفوضوه بالمحافظة عنه وانصرفوا عنه . وفى تلك الأثناء عادت
 رسله من مصر حاملين أوامر الإمام الفاطمى المستنصر بالله
 بإقامة الدعوة الإسماعيلية فى اليمن . فقرأ الكتاب على أتباعه ،
 وأخذ نفوذه يزداد ، وبدأت الأموال ترد إليه من جميع الجهات
 وهذا ما جعله يقوم بعمارة جبل مسار ويجعل له الدروب
 والبيوت .

ونورد هنا المنشور الذى أذاعه الصليحي على أهل حراز

بعد استيلائه على جبل مسار :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله الذى أورى زناد الحق ، ورفع عماد الصدق ،
بالذين أكمل بهم الحجة على الخلق ، وأنارهم ما بين الغرب
والشرق . الهداة إلى الخير والأدلة . الدعاة إلى أشرف المنهاج
والملة . خلفاء أنبيائه وأمنائه وأصفياه . وسلالة رسله من
لدى آدم عليه السلام . ووصل نظامهم . وأعلى مقامهم
وفتح بالنور أيامهم . ونشر بالعدل أعلامهم . ففهم أعلام
الدين . والدعاة إلى الحق المبين . الشيعة الميامين : والسلالة
الطيبين . آل طه ويس .

وصلاته على من ختم به الرسالة : وفتح بالأئمة من عقبه
أبواب الدلالة : سيدنا محمد النبى . وعلى أخيه ووصيه
على : وعلى الأئمة من نسل الحسين الزكى . ورثة التنزيل
وعلى وخزنة التأويل .

وأفضل صلاته وأنمى تحياته وبركاته على وارث علمهم ،
والقائم من بعدهم ، بقمية السلف وخيرة الخلف ، مولانا معد
أبى تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه
خلفه وسلفه .

أما بعد يا أهل حراز ! ألهتكم الله رشاكم ، وجعل

الجنة قصدكم فلم أطلع إلى حصن مسار متجبراً باغياً .
ولا متكبراً على العباد عاتياً . ولا أطلب الدنيا وحطامها ،
ولا طالباً أملك غوغاءها وطغامها . لأن لي بحمد الله ورعاً
يحجزني عما تطمح النفوس إليه . ودينياً أعتمد عليه .

وإنما قيامي بالحق الذي أمر الله عز وجل به . والعدل الذي
أنزله في محكم كتابه . أحكم فيه بحكم أوليائه . وسنن أنبيائه
وأدعو إلى حجته الذي في أرضه . والقائم بفرضه . لست من
أهل البدع . ولا من ذوى الزور والشنع الذين يعملون في
الدين بآرائهم . ويحكمون بأهوائهم : بل أنا متمسك بحبل
الله المتين . عامل بما شرع الله في الدين . وداع إلى أمير
المؤمنين . عليه صلوات رب العالمين لا أقول إلا سداداً
ولا أكره في الدين أحداً . فن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ،
ومن ضل فإنما يضل عليها . وما الله يريد ظالماً للعباد .

واعلموا . ينا أدل حراز ! أنى بكم رؤوف . وعلى جماعتكم
عطوف ، للذى يجب على من رعايتكم وحياطتكم . ويازهني
من عشرتكم وقرابتكم ، أعرف لذي الحق حقه ، ولا أظلم
سابقاً سبقه . وأنصف المظلوم وأقمع الظالم الغشوم ، وأبث
فيكم العدل . وأشمكم بالفضل . فاستديموا ذلك بالشكر .
ولا تصغوا إلى قول أهل الكفر ، الذين من بقايا أهل الكفر ،

فيحملوكم من ذلك على البغى والعدوان : والخلاف والعصيان ،
وكفر الإنعام والإحسان : تستوجبوا بذلك تغيير الإنعام ،
وتعجيل الانتقام . وكتابى هذا حجة عليكم ومعدرة إليكم .
والسلام على من اتبع الهدى : وتجنب أمور الردى .
والحمد لله على ما أعاد وأبدى : وصلواته على من أرشد
به من الضلالة وهدى : سيدنا محمد النبي وآله الأئمة الشهداء ،
وسلم تسليماً . حسبنا الله ونعم الوكيل » .

* * *

مما لا ريب فيه أن ازدياد نفوذ الصليحي : وانتشار
أمره بهذه السرعة استفز جماعة من زعماء اليمن ، فأعلنوا
خوفهم من عاقبة تلك الانتصارات التي يحرزها الصليحي
في كل يوم . وكان أن قام جعفر بن القاسم بن علي العياني
صاحب صعدة في جمع كبير من أصحابه ، وهاجم حصن
الأخروج ، وقاتل أهله ، وكان عليه الحسين بن مهلهل
من أصحاب الصليحي وجماعة من حمدان وبني شهاب ،
وانتهز هذه الفرصة أيضاً جعفر بن العباس الشاوري صاحب
مغارب اليمن الأعلى ، فقام على رأس جيش كثيف من حراز
وكرار وغيرهما من أهل الشدة والبأس ، وقصد عبّري أسفل
جبل مسار . وأراد الصعود إليه ، فنزل أنصار الصليحي

يدافعون عن بقائهم ، وعن نصرة مبادئهم : لأن الانتصار معناه
البقاء لدولتهم الناشئة ، أما الهزيمة فمعناها الفناء التام والقضاء
المبرم .

ولما تكاثرت القوم على جيش الصليحي : خشي الهزيمة
وما يترتب عليها من سوء العاقبة ، فتنزل بنفسه ومن بقي معه
من القوى الاحتياطية واستمد من الحرج قوة ، فشد بذلك
عزم أتباعه . وحمى وطيس القتال . وأخيراً ربح الجولة :
أما جيش ابن عباس فقد لاذ بالفرار مغلوباً على أمره ،
ولكنه ما لبث أن رجع وثبت في المجال طمعاً في النصر فكان
جزاؤه هذه المرة القتل هو ومن معه من الأتباع . وغنم
الصليحي وأصحابه الكثير من السلاح والأمتعة والعدة ، فقوى
بذلك مركزهم وزاد نفوذهم . وارتفعت روحهم المعنوية ،
وخافهم من كان يترقب من القبائل نتيجة هذه المعركة .
وفي هذه الأثناء اضطر الشريف جعفر بن القاسم - أمام
مقتل حليفه ابن العباس وهزيمة جيشه - أن يترك حصن
الأخروج وينجو بنفسه : وكانت هذه التجربة اختباراً
لقوة الصليحيين وتعاونهم وتمسكهم بمبادئهم : كما أن شخصية
الصليحي وجلال قدره وحسن بلائه في تأييد أمره أسكن
النفوس الغاضبة ، فسار بالأمر قدماً ، واستولى على « حـَضُور »

وأخذ حصن «بتاح» وخاف أهل حراز النزال ، فقرروا المدخول في طاعته إلا ابن جهور . فتقد صمم على الاستمرار في المكابرة . واعتصم بحصن لذاب . فاضطر الصليحي إلى تكليف القائد الإسماعيلي الكبير عامر بن سليمان الزواحي أن يصعد جبل شبام وبيت عناد ومعه جماعة من بني قليد وهوازن وبني المجرى . ثم وصل أحمد بن المظفر الصليحي وجماعة من الحجازيين . وفيهم عباس بن الكرم ، فعمروا داراً في قمة جبل شبام . كما عمروا جبل بيت عناد استعداداً لمقاومة ابن جهور .

وبعد أن تحصنوا في هذه الناحية اتجه جيش الصليحي لمحاربة ابن جهور في لذاب . فضيقوا عليه الحصار ، وفكوا أسر جماعة كبيرة من أصحابهم . ومنهم القاضي «الملك بن مالك الحمادي» . ولكن ابن جهور استمر في عناده ، وتمكن من أن يؤثر على أتباعه . ويدفعهم إلى الاستمرار في المقاومة ؛ ولما ضعف جيشه ، ورأى أن مصيره إلى الهلاك استعان «بنجاح» في زُبَيْد ، وكانت علاقته مع الصليحي حسنة ، فتوسط بالصلح ، ولكن وساطته لم تثمر ، وكان أن تهادى ابن جهور في بغيه ، فاضطر الصليحي إلى محاصرة حصن زبار حتى سقط . وهنا رضى ابن جهور وسلم نفسه إليه

مكرهاً في مسار ، فأنزله الصليحي في ضيافته ، وأحسن إليه .
ويبدل تسامح الصليحي مع عدوه على نبلة وعراقته وطيب
محتده فقد كان المفروض والمنتظر أن يأمر بقتل ابن جهور
الذي تسبب في إقلاق راحة الصليحيين مدة من الزمن
حتى استمات في سبيل الوصول إلى النصر وتحرير الحانقين
والناقمين عليهم - بالرغم من هذا كله وجد الصليحي أن
المعاملة الحسنة أجدى وأنفع في مثل هذه المواقف ، وأثر أن
يكسب ثقة من بقي من أتباعه ، وقد تحققت سياسته ،
فانقسمت منطقة طاب فيما بينهم إلى فريقين : فريق انضم
للصليحي ، وقدم إليه المساعدة المالية وقدرها ألف دينار ،
وفريق استمر في عداوته . مما جعل الصليحي يرد كيدهم إلى
نحورهم ويجتذب إليه الفريقين أخيراً ، ولم يتوقف عند هذا الحد ،
بل نزل إلى عبري دعاس ، وعقد مؤتمراً من جميع أهل حراز ،
حذرهم فيه من الخلاف عليه والشقاق ، وأعلن بدء قيام الدولة
الإسماعيلية المنتظرة في اليمن برئاسته ، وقد وعدهم بحسن السياسة
وأنه لا يخالف الشرع ، كما أنه أمرهم أن يرفعوا إليه ما يكون
من العمال من الحسن والتبجح ، حتى يتزل بهم من إنعامه
وعقوبته بحسب أفعالهم .

وبدأ الصليحي حكمه على الأسس التي أعلنها وتقدم

فى تنفيذ سياسته المرسومة بخطى حازمة سريعة . وكان من ضمنها اتباع سياسة المهادنة إزاء أمراء اليمن وأصحاب الدويلات المجاورة . إذا نفعت هذه السياسة ، وإلا فليس أمامهم إلا الحرب وإخضاعهم بالقوة تحت راية حكومته ، ولما ملك الصليحي جبال حراز والمناطق المجاورة : ونحشى ملوك تهامة والجبل بأسه الشديد . وتديره الرشيد ، وتملكه الحصون والبلدان . وبخاصة حصون « حضور » وما جاورها ، بدأت التقولات والإشاعات تنتشر فى كل مكان ، وهنا كان لابد له من مهادنة أبى حاشد صاحب صنعاء ، كما هادن أباه يحيى بن إبراهيم الصحارى من قبل ، فلما توفى يحيى سنة ٤٤٠هـ أرسل الصليحي بعض أصحابه وبنى عمه إلى صنعاء لتعزيته فى أبيه والإحسان إليه . ولكن أبى حاشد عدّ تأدية مراسم التعزية ومحاولاته فى المهادنة تدخلاً من الصليحي فى أموره فساءت العلاقة بينهما أخيراً مما أدى إلى قيام الحرب بين الطرفين . وقد انتهت بمقتل صاحب صنعاء واستيلاء الصليحي عليها . وقد رأى الناس من عدله وفضله وحسن سيرته ما ألف قلوبهم على محبته ، وجعل أهل النخوة والنجدة يقبلون الدخول فى طاعته .

هذا ... وقد عد الإمام الزيدى الناصر الديلمى بن الحسين

ابن محمد بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب - وكان قد وصل من الديلم إلى اليمن سنة ٤٣٧هـ لإعلان المذهب الزيدي وانضمت إليه قبائل كثيرة في صعدة . ومنها سار إلى صنعاء وملكها . فطرده يحيى بن أبي حاشد والشريف جعفر بن الإمام منصور العياني ، فعاد إلى ذي أبين وناصر هذا كان يعد من العلماء الأجلاء ، وله تفسير للقرآن في أربعة مجلدات - عد الناصر أن استيلاء الصليحي على صنعاء يشكل تهديداً له ولغيره من زعماء اليمن ، فكان أن اتصل « بنجاح » صاحب تهامة وطلب منه إخراج الصليحي من صنعاء ، وتملكها . وهذه البوادر التي ظهرت من الناصر كانت مدعاة لغضب الصليحي . فسير إليه جيشاً حاربه ثم قتله أخيراً في موقع نجد الجاح ببلاد رداح ، ومثل به ثم حمل رأسه إلى صنعاء ، ودفنت جثته في أقيق ببلاد عنس .

وفي هذا العام ثار الحمدانيون وهم أكبر القبائل التي دانت للصليحيين وفكروا في خلع طاعتهم ، والخروج على حكمهم ، بالرغم من أن الصليحي كان لايسير فيهم إلا سيرة العدل والحق . فاتصلوا بالشريف القاسم بن جعفر بن الإمام منصور العياني ، واستنهضوه وأتباعه فاستجاب لطلبهم ، وخرجوا جميعاً سنة ٤٤٨ هـ لغزو الصليحي ، فتقابل الجمعان

بالتقرب من قرية اخرابة . ببلاد حاشد : فردهم الصليحي وحاصر الشريف ومن معه بأحد الحصون : ونصب عليه المنجنيق : لكن أتباع الشريف دافعوا دفاع الأبطال ومات أكثرهم لنفاد المؤونة . وعند ذلك اضطر الشريف إلى أن يسلم نفسه للصليحي فأكرمه وخلع عليه ، ولم تكن سياسة الصفح التي اتبعها الصليحي في هذه المرة سياسة هودة أو تردد . بل قصد منها تسكين الثارات ، لأن في تسكينها الأمن والخير والسعادة والاستقرار لليمن ولليمنيين .

وتمشياً على هذه السياسة القائمة على المهادنة والملاطفة كان الصليحي يلاطف القائد « نجاحاً » صاحب الدولة الحبشية في زبيد تهامة التي حملت لواء الدعوة الإسلامية السنية في اليمن بعد دولة بني زياد ، ولكنه كان يدرك أن دولته الإسماعيلية الفتية لا يمكن أن تكون لها شخصية معنوية قوية وكيان متين ، إلا إذا قضى على أكبر منافسيه وهو « نجاح » وكان الصليحي يلاطفه حتى قوى مركزه ، ودان له معظم الجزيرة اليمنية ثم بدأت العلاقة تتوتر بين الطرفين بفضل مساعي الإمام الزيدى أبي الفتح صاحب صعدة الذي أفسد بين الصليحي وصاحب زبيد فحلت الوحشة بعد الأُنس والخباء بعد حسن الصلة . فأرسل نجاح جيشاً

كثيفاً ، ووافاهم الصليحي بجيشه خلف صعفان في الجنت المتصل بتهامة ، ودارت بين الطرفين معارك طاحنة ومصادمات عديدة ، وكانت الكرة الأخيرة للصليحي وجيشه من العرب على جمع الأحباش .

ويروى التاريخ أن الأحباش عادوا فاجتمعوا سنة ٤٥٠ هـ في ابن طرف ، وكان معهم جميع أمراء الأحباش ، وكان جيشهم عشرين ألفاً ، فسار إليهم الصليحي في ألفين وسبعمائة فارس وهنالك التقى الجمعان بالزرائب ، فكانت الدائرة على الأحباش ، ولم يسلم منهم إلا ألف لجأوا إلى جبل يعرف بالعكوتين فوق مدينة الزرائب .

في تلك الأثناء مات نجاح سنة ٤٥٢ هـ بالكدراء ، ويروى أن الصليحي دبر حياة لقتله ، حتى تم له ما أراد على يد جارية حسناء كان قد أهداها إليه فيما مضى لتحقيق هذا الغرض ... على أن أكثر المؤرخين يؤكدون أن موت نجاح كان طبيعياً . ولكن هذا الموت لم يكن حدثاً فاصلاً بين الطرفين ، بل على العكس كان بداية لعهد نزاع طويل بين الصليحيين والنجاحيين ، فقد تسلم الزعامة بعد نجاح ولده سعيد ، ولكن الصليحي أظهر براعته العسكرية بتأجيل أمر النجاحيين ، وقرر أن يقضى أولاً على فوضى

الدويلات في داخل اليمن الأسفل : وبعدئذ يتجه إلى عدوه الرئيسي : وكل هذا حتى لا تشغله جهة أخرى في داخل البلاد . وفي هذا تتجلى حكمته ورأيه السديد : فزار مسار وصنعاء زيارة قصيرة ، ثم قصد بجيوشه اليمن الأسفل واستولى عنوة على جبل صبر . وعلى بلاد بني الكرندى وملوك المعافر وحصن الدملرة . كما استولى على بلاد الحسين التبعي صاحب حصن حبّ وبُعدان والسحول والشوافي ، ودخل الجند . وهي يومئذ مدينة اليمن الأولى . ولم يكن في اليمن أشهر منها ومن مدينة صنعاء منذ الجاهلية حتى عهد الصليحي . ثم سار إلى عدن واستولى على بلاد بني معن الذين كانوا يملكون عدن ، ثم هادنهم أخيراً وسلم إليهم بلادهم بعد أن بذلوا له السلم وأعلنوا الخضوع له والائتمار بأمره .

ثم قصد بعد ذلك تهامة . وسار إلى زبيد وافتتحها ، واحتل التهائم كلها ، وطرد منها أولاد نجاح الذين فروا إلى جزيرة دهلك في البحر الأحمر . واستقروا فيها . ويروى التاريخ أنه بعد هذه الفتوحات سار في الناس بالعفو والصفح ورفع السيف ، وبسط العدل ولاذت به العرب ولا سيما في بلاد تهامة حيث كان العبيد يتحكمون بهم ويستطيون عليهم أيام القائد نجاح .

وهكذا طوى الصليحي بلاد اليمن طياً وأرضها جميعها لنفوذه وسلطانه . وافتتح كل ما كان مغلقاً في وجهه فلم يخرج سنة ٤٥٤ هـ إلا وقد ملك الأقطار اليمنية كافة : قلاعها وحصونها . ومدنها وسهولها وجبالها . وامتد نفوذه من مكة حتى حضرموت . وتمنعت عليه صعدة بعض التمتع . ولكنه ما لبث أن قتل القائم فيها وملكها وبذلك تمت أمور الدولة واستقرت وتوحدت كلمة اليمن .

وجعل الصليحي صنعاء عاصمة لمملكته واتخذها حاضرة لدولته . وبني فيها عدة قصور ، وأسكن معه جميع ملوك وأمراء اليمن تحت علم واحد . ورأت اليمن بعد قرون طويلة وحدة البلاد في ظل حكم عادل قوى يقوم على الحرية والعدالة والحق . وكل هذا كان من برنامج الملك على الصليحي ، فقد أخذ يوطد دعائم ملكه على هذا الأساس ، ويرسي قواعده ، وينظم سياسة البلاد وإدارتها ، ويولى في المناطق والحصون من يرتضيه ويثق به من الولاة والحكام والقواد ، فولى على تهامة « الأمير أسعد بن شهاب الصليحي » ، صنو السيدة الحرة ، أسماء بنت شهاب زوجته - الذي دخل زبيد سنة ٤٥٦ هـ ، وسكن دار شحار ، وأحسن السيرة في الرعية ، وأذن لأهل السنة في إظهار مذهبهم ، كما أمرهم بذلك الصليحي ،

وعامل أرباب الدولة النجاحية بالحسنى .

وكان الصليحي قد أقسم ألا يولى التهاشم إلا من يزن له مائة ألف دينار . ثم ندم على ذلك حين أراد أن يوليها أسعد بن شهاب ، وهنا وزنت له زوجته الملكة أسماء عن أخيها ، فقال لها زوجها : يا مولاتنا ! من أين لك هذا ؟ قالت : « هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ، فتبسم وعرف أنه من خزائنه ، فقبض وقال : هذه بضاعتنا ردت إلينا ، فقالت له : « ونميرُ أهلنا ونحفظ أخاننا » .

وعين الصليحي أيضاً ابنه الأمير المكرم أحمد على الجند وما يليها ، واستعمل أخاه عبد الله على بلدة ذى جبلة ، فابتدأ يصالحها ويعمرها ويمدنها ، ولم يكن اهتمام الصليحي مقصوراً على اليمن فحسب ، بل كان ينظر إلى ما وراء حدود بلاده ، وبالأخص إلى بلاد الحجاز والأراضي المقدسة فيها ، وهي أقرب البلدان إلى اليمن ، وأهمها في نظر المسلمين ، وأحوجها إلى استقرار الحكم وحسن الإدارة ، فوجه اهتمامه إليها ، وكان إخلاصه للخلافة الفاطمية وللتعاليم الإسماعيلية ، وتفانيه في سبيل رضا الإمام المستنصر بالله ، يحتمل عليه أن يجيب أوامره طائعاً ، ويؤديها متبركاً برضاه ، معترفاً

بثقتة به ، فلما خرجت مكة عن طاعة المستنصر بالله ،
وقطعت الخطبة له من سنة ٤٥٣ هـ . أرسل الصليحي إلى
واليها « شكر الحسيني » يحذره مغبة خروجه عليه وتبودلات
بين الطرفين مراسلات تنطوي على الكثير من التهديد والوعيد .
ولما عيل صبر الصليحي وضاق صدره طلب من الإمام
الفاطمي المستنصر بالله أن يأذن له بإزالة الشريف شكر عن
مكة ليكون أمرها إليه ، فأجابه المستنصر بكتاب ينهيه
عن سفك الدماء بالحرم الشريف قائلا : « إياك أن تلتقي
الله بدماء بني فاطمة » ، فاعتمد الصليحي أمر إمامه ،
وصبر مكرهاً على ما كان يجري في البلاد المقدسة .

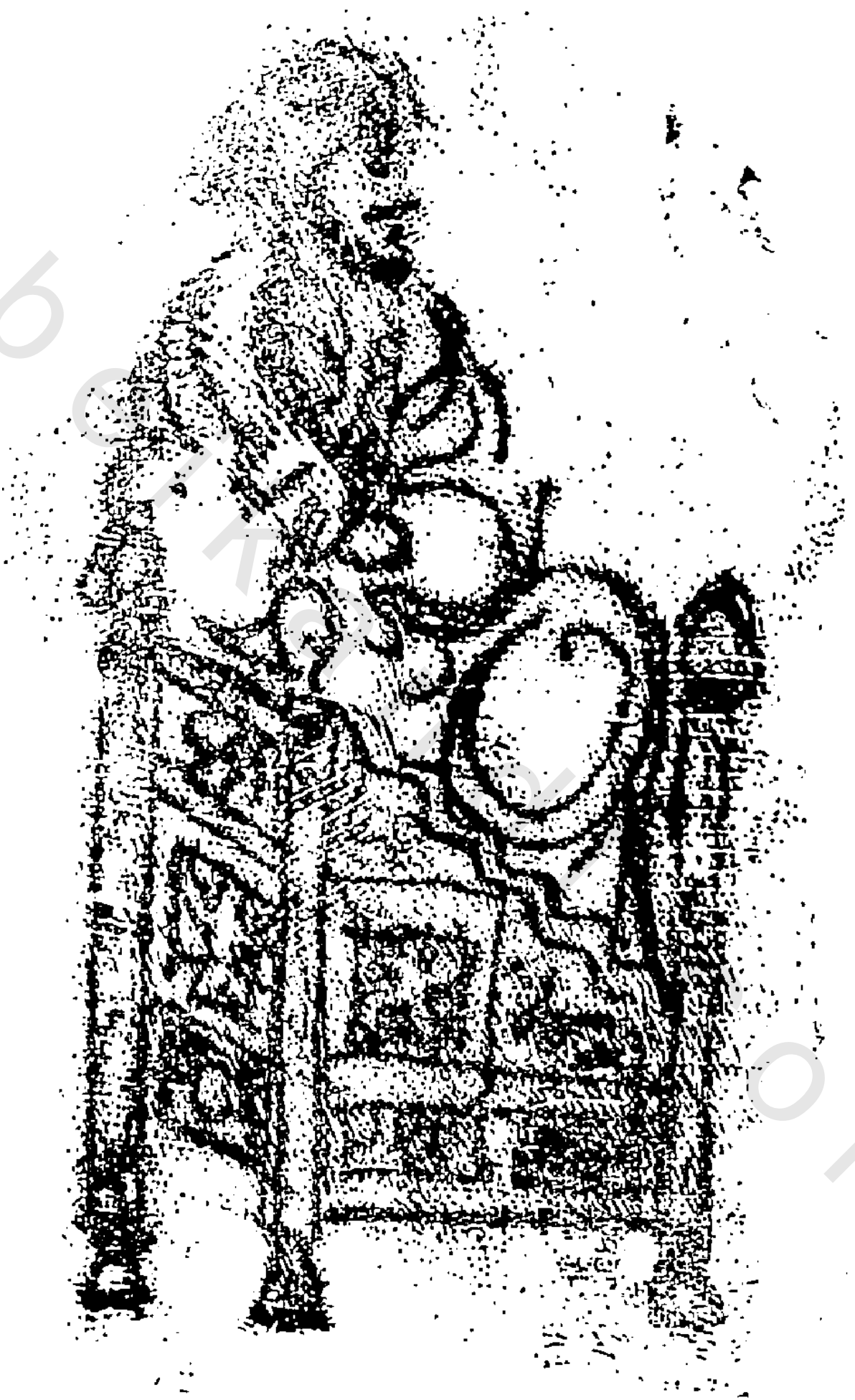
ثم توجه إلى مكة أخيراً سنة ٤٥٤ هـ ، وقضى فريضة
الحج ومعه أمراء اليمن وزعمائها ، فانتزعها من بني
أبي الطيب ، وذلك أن شكراً ، لما توفي وخلفه ابن جعفر
رئيس الهواشم وزوج ابنة شكر ، أوقع بالسياميين الهزيمة ،
وأخرجهم من بلاد الحجاز ، واستقل بإمارة مكة ، وأقام
الخطبة للخليفة الفاطمي الإمام المستنصر بالله ، ولكنه لم يعمل
على الاحتفاظ بسيادة الفاطميين على مكة ، لأنه ما لبث
أن انحرف عنهم ، وأمر بذكر اسم الخليفة العباسي القائم .
ولما انتهى الصليحي من فريضة الحج أخرج من الأموال

والصدقات للبيت والحرم والمناسك ما يفوق حد التصور ،
وعامل الناس بالحنى . وأظهر العدل والإحسان . وعمل
على استمالة الناس إلى جانبه بما امتلك من الأموال ،
فطابت قلوبهم . ورخصت الأسعار وأمنت الحجاج أمناً
لم يعرف مثله من قبل حتى إنهم كانوا يعتمرون ليلاً ونهاراً
وأموالهم محفوظة ورحالهم محروسة . ولم تقف أعماله هنالك عند
هذا الحد . بل إنه شن حملة تأديب على القبائل الثائرة التي
كانت تعتدى على الحجاج ورد بنى شعبة عن قبيح أعمالهم
وأفعالهم مع الحجاج ، ورد إلى البيت من الحلى والأثاث ما كان
بنو الطيب الحسينيون قد أخذوه عندما تملكوا بعد شكر ،
وكانوا قد عروا البيت والميزاب . ثم أخذ يصلح ما أفسده
الأشراف في هذه البلاد ، وتحمل ديات القتلى من ماله الخاص .
فكسب بحسن سياسته وإدارته رضا إمامه المستنصر بالله ،
وثقة كثير من البلدان الإسلامية المجاورة لما قدمه من خدمات
للحجاج عامة ، وما قام به من كسوة الكعبة بالديباج الأبيض ،
وما جلبه من الأقوات إلى أهالى تلك البلاد ، فلهجت الألسن
بالدعاء له فى كل مكان والثناء على كرمه وأفعاله .

ومن الجدير بالذكر أن الصليحي أقام فى الأراضى
المقدسة حتى يوم عاشوراء سنة ٤٥٥ هـ ينحطب للخليفة

المستنصر بالله ، ويعيب على العباسيين إهمالهم شؤون الدين ،
وفي أثناء إقامته بمكة راسله الأشراف الحسينيون المغلوبون
على أمرهم ، وطلبوا منه أن يختار من بينهم والياً عليهم ، وبذلوا
له الطاعة . فأقام على البلدة واليها السابق محمد بن جعفر ،
وأعطاه مالا وسلاحاً . وأصلح بين العساكر ، ودل بهذا
على حسن سياسته لأنه لم يتعنت مع الحسينيين ، ولم يظلمهم ،
وآثر أن يحسن معاملتهم ليكسب ودهم ، وخاف أن يترك
البلدة قبل أن تستقر الأمور فيها . فتقع في أيديهم ، ويستمرون
في عنادهم وخلافاتهم ، فاستعمل معهم الالين ، وبذلك نجح
في تحقيق سياسته مؤقتاً ، وقفل بعد ذلك عائداً إلى صنعاء .

وبهما يكن من أمر فإن الشريف محمد بن جعفر أمير
مكة لم يعمل طوال عهده الذي بدأ من سنة ٤٥٣هـ — ٤٨٧هـ
على تنظيم الأمور في الأراضي المقدسة . وإقرار الأمن بها
بالرغم من المساعدات المالية التي كانت ترد إليه من الخليفة
العباسي أحياناً ، ومن الخليفة الفاطمي أحياناً أخرى ، بل
أساء التصرف والسيرة فيها ، وأصبح الحجاج في أواخر أيامه
لا يأمنون على أنفسهم ، كذلك لم يبد من هذا الشريف ما يشعر
برغبته في الاستقلال عن الخلافة العباسية أو الفاطمية ، بل
دان لكل منهما بالطاعة في فترات متقاربة حتى وصفه



أبو المحاسن في كتابه «النجوم الزاهرة» : بأنه كان متلونا
تارة مع الخلفاء العباسيين العراقيين وتارة مع الفاطميين
المصريين . ويظهر من هذا أنه كان يلعب بمصالح البلاد
المقدسة ومصالح المسلمين جرياً وراء المال ، وهناك من يقول :
إن هذا التلون يعزى إلى دوافع سياسية وأخرى اقتصادية .

هذا ... ومن الجدير بالذكر أنه بعد عودة الصليحي
إلى صنعاء شكر له الخليفة الفاطمي المستنصر بالله حسن
صنيعه وامتناله لأوامره بعدم إراقة الدماء في الأراضى المقدسة ،
ولكن الشريف محمد بن جعفر رجع إلى ما كان يفكر فيه ،
وخرج على من أحسن إليه ، فهاجم مدينة الحلى ، واستولى
على ما بها من متاع للصليحي ، ولم يكتف بذلك بل عمل
على إثارة الفتن وتهيج العامة .

وفي أثناء غيابه عن اليمن أيضاً قامت الفتن والثورات
في بعض أنحاء المملكة ، فثار عليه قوم من عَنَسَ و زُبَيْد
وأظهروا الخلاف والعصيان ، والتفوا حول رجل منهم ، ثم التجأوا
إلى جبل مَسْثَوَة وما جاوره في الجبال ، وعندما عظم فسادهم
قصدهم الصليحي واقتحم معاقبتهم عنوة حتى دانوا له بالطاعة .
وأخيراً وبعد كل هذا عاد الملك على الصليحي للتفكير
في شؤونه الخاصة وأمور الملك ، ومنها ولاية العهد خاصة ،

وكان ولده الأكبر الأمير محمد قد بلغ مبلغ الرجال ،
فرغب في أن يوليه ولاية العهد لينوب عنه في الملك في حياته
وبعد مماته ، فكتب إلى الإمام المستنصر بالله سنة ٤٥٦ هـ
يخبره بما استقر عليه رأيه ، فورد إليه سجل الإمام بالموافقة
على هذا داعياً للأمير بالتوفيق . ولقبه الأمير الأعز شمس
المعالي . وأذن له الإمام أن يذكر هذا اللقب على منابر
البلاد اليمنية . وكان وصول السجل المستنصر من مصر سنة
٤٥٦ هـ ، وفي ذلك الوقت توفي الأمير أسعد بن شهاب حاكم
زُبيد وأعمالها . فرأى الصليحي أن يولي ابنه الأمير محمد على
ما كان لحاله أسعد ، وأراد أن يتركه حر التصرف في إدارة
شؤونها لكي يختبره ويدربه على الحكم .

وهذا هو سجل الإمام المستنصر بالله بهذا الشأن :

«وما نظر إليك أمير المؤمنين نظر مثله ، ممن ينظرون
بنور الله لمثلك ، ممن بإخلاص ولائه يستظهر ، أن يتخذ
ولئك منتجب الدواة وصفوتها ذا المجدين خليفة لك ، يخلفك
في حياتك ، ويكون خلفاً صالحاً عند حضور وفاتك ،
وأن يصطنعه لنفسه ويلبسه من لباس الأكرامة ما يرتقى إلى
ذروة الشرف بلبسه ، ويفيض عليه من خاص الملابس ما يفيض
عليه الأقدار بإذن الله سعورها ، وتنجز له أقاصى الأمنى

وعودها ، ويسميه بالأمير الأعز شمس المعالي مضافاً إلى قديم
اللقابه ، ويأذن أن يدعو في تراجم كتبه ويدعى به ويفسح
أن يذكر به على فرق منابر بلادك في أعجاز ذكرك وأعقابها ،
وأن يلقب أخويه بلقبين زائدين في ألقابهما المتقدمة لينالا بهما
مزيداً في الاصطناع والكرامة . فالأوسط منهما الأمير المكرم ،
والأصغر الأمير الموفق ، والله تعالى يسدد كلا منهما ويرفق .
وصل الأمير محمد إلى زُبيد في شهر شعبان من سنة
٤٥٧ هـ . وبعد خمسة أشهر من حكم تهامة سار والده الملك
على الصليحي بصحبة الملاكة السيدة الحرة أسماء بنت شهاب
وولدهما الموفق في شهر محرم سنة ٤٥٨ هـ إلى زُبيد ،
وأقاموا في ضيافة ولدهم الأعز مدة قصيرة ثم عزموا بعدها
على العودة إلى صنعاء فصحبهم الأمير الأعز مودعاً ، وكان
يريد أن يبلغ معهم الغمد ، ولكن لما صار بالمصقع أصابته
الحمى فأمره والده بالرجوع إلى زُبيد ، فرجع إليها ودخلها
ليلة الثلاثاء لعشرين ليلة نخلت من محرم ، وقد ازداد عليه
المرض فلم يمهله ، فتوفي في الثاني والعشرين من محرم
سنة ٤٥٨ هـ ، وعمره سبع وعشرون سنة ، ولما وصل خبر
موته إلى والده ، وهو على وشك الطلوع إلى حصن مسار
مع الملاكة أسماء ، اشتد عليهما الحزن ، وقفل الملك على عائداً

إلى زبيد بجميع من معه ، فوصل إليها ليلاة الاثنين ولم يكن
ابنه الأعز قد دفن فشييع جنازته يوم وصوله ودفنه بقرب ضريح
خاله الأمير أسعد بن شهاب .

وبعد أن أقام الملك على الصليحي العزاء على ابنه الأعز
الأمير محمد سبعة أيام ، عاد فتجدد هذا مرة أخرى على وفاة ابنته
ميمونة التي ماتت غمًا على أخيها . وقبل أن تصل رسل
الملك الصليحي إلى الإمام المستنصر بالله كان قد علم بوفاة
الأمير الأعز فأرسل إليه سيجلاً يعزيه برفاة ولى عهده ،
وآخر يعين بموجبه الأمير المكرم ولياً للعهد .

ولم يكتف الملك على الصليحي بما وصله من الإمام
المستنصر من عطف وشعور ، بل أوفد إليه إلى القاهرة
وفداً مكوناً من القاضي عمران بن الفضل ونجيب بن عفير
ويوسف بن محمد وعنتر بن غشم يطالب منه السماح بالمثل
بين يديه ، فردّ عليه المستنصر بأنه يشفق عليه لبعده المسافة
ومشقة الطريق ، ولعل السبب الرئيسى فى عدم موافقة المقام
الإمامى على ذهاب الصليحي إلى مصر يرجع إلى حالتها
العامة فى ذلك الوقت ، إذ أنها كانت تحت الشدة العظامى
التي استمرت من سنة ٤٥٩ - ٤٦٦ هـ ، وهى المدة التي
تعرضت خلالها للسلب والنهب والحراب ، بسبب اختلال

الأمن وانتشار الفوضى ، وهذا ما حفز الإمام المستنصر بالله على تكليف بدر الجمالي بالوزارة . وهنا بدأ عهد جديد بالتغلب على المصاعب وإعادة الأمن والثقة والاستقرار .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الملك على الصليحي لما استقر به الحال ، وكان قد أوحى لولده الثاني أحمد المكرم بولاية العهد والقيام بالعدل وحسن السيرة وسياسة الرعية ، غادر صنعاء إلى الديار المقدسة مرة ثانية لأداء فريضة الحج ، وكان قد أرسل قبل سفره خمسين أميراً من أمراء اليمن المغلوبين على أمرهم ومائة وسبعين من آل الصليحي وغيرهم ممن أرادوا أداء فريضة الحج من قبائل يام وجنب وسخان وأهل حراز ، وقد رمى من سيرهم أمامه عدم ازدحام الطريق بهم ، ثم سار هو في ألفي فارس وبين يديه خمسمائة فرس مطهمة بالسروج ومحلاة بالذهب والفضة وخمسون هجيناً ، وغير ذلك من أدوات الزينة والآلات مما لا يمكن إدخاله تحت الحصر .

وكان قيامه من صنعاء في يوم الاثنين السادس من ذي القعدة سنة ٤٥٩ هـ ، وفي هذه الأثناء كانت نار الحقد وحب الانتقام تلتهم قلوب بني نجاح بزعامة سعيد الأحول ، فكانوا يتربصون الفرص للإيقاع بالصليحي ، والعمل على تقويض أركان دولته التي كانت سبباً في زوال ملكهم وملك

بعض أمراء اليمن الآخرين ، فكان يشجعهم على الاستمرار
 بطلب حقوقهم ، ويقوى عزيمتهم على الأخذ بنثار نجاح ،
 ما لمسوه من مساندة بعض القبائل لهم ، وإعلانهم عن
 استعدادهم للسير معهم في حروبهم . فلما وصل الخبر إلى
 الصليحي استقدم أحد متقدميهم فرحاً البيشي ، وهو من
 العبيد الأحباش عند نجاح ، فذكر له إحسانه إليه وتقديره
 ورفع مكانته ، فأنكر فرح ما نسب إليه وحلف الأيمان
 المغلظة بأنه لا يعلم شيئاً عن الأمر ، وقرر استعداده للذهاب
 وإحضار رأس سعيد الأحول إلى الصليحي ؛ ولكن الأمر
 كان على العكس ، فإن فرحاً لما ذهب إلى زبيد أخذ
 يحرض العبيد والأحباش ويوغر صدورهم ؛ وبلغ ذلك الصليحي
 فأمر بإلقاء القبض عليه وقتله ، فكان من أثر ذلك أن
 شق الأحباش عصا الطاعة على ولاية الصليحيين بزبيد
 حيث وثبوا على أبي السعد ، وأحمد بن أسعد بن شهاب
 الصليحي فقتلوهما ، وقتلوا كل من كان معهما من أهل
 حراز ، ثم نهبوا ما معهم من أموال ومتاع .

ولم يكتفوا بذلك بل عزموا على محاربة الملك الصليحي
 نفسه ، فاستدعوا من كان على رأيهم من العبيد والأحباش
 بتهامة والحجاز لحرب الصليحيين ، وجندوا جنودهم ،

وعبأوا صفوفهم ، ثم إنهم علموا من عيوزهم التي بثوها أن الصليحي ليس معه أحد من أهل البأس والحرب والمراس ، لأن رجاله كانوا قد تقدموه إلى الديار المقدسة كما ذكرنا وأن جميع أمواله وأثقاله مبعوثه فيما بين هجر والمهجم ، وهذه البلاد قد تمهد مهادها واستقام عمادها وأمنت السبل وخضع كل عزيز وذل ، ولم يكن مع الصليحي في المهجم إلا ابنه الموفق وزوجته السيدة أسماء بنت شهاب وأخواه عبد الله وإبراهيم وجماعة من بني الصليحي ، فلما علم بأن الأحباش قد عبأوا قواتهم وأنهم في طريقهم لقتاله ، أنفذ عبيده الذين كانوا معه لمقاتلة العدو ، وقد عهد إليهم بهذا الأمر لوثوقه بأنه ولي نعمتهم وله عليهم فضل وإحسان ، وأنهم يقدونه بالهجم والأرواح . فهبوا مسرعين متظاهرين بالحماسة ، ولكنهم أضمرُوا الخيانة والغدر ، لأنهم حين التقوا في الطريق ببني جلدتهم قرروا الغدر بسيدهم وولى نعمتهم ، وحرصوا العبيد والأحباش عليه ، ودلّوهم على موضعه ، وقالوا لهم : إن فاتكم غداً لحق بأصحابه وعسكره ، فامتنع عليكم . فأصغوا إلى نصيحتهم ، وقويت نفوسهم ، وصحت عزائمهم ، وساروا إليه مجدين حتى فاجأوه بقرية يقال لها « أم الدهيم » فانقضوا عليه في اليوم الحادى عشر

من ذى القعدة سنة ٤٥٩ هـ ، ومعه بنوعمه الذين أبلوا بلاء شديداً فى الدفاع . وكان أخوه عبد الله أشدهم يروءى إقداماً وأعظمهم بطشاً بالأعداء .

فى هذه المعركة قتل الصليحي وأخواه عبد الله وإبراهيم وبعض أقاربه . أما الأمير الموفق ابن الملك على الصليحي الأصغر . ومهنا بن على المظفر الصليحي ، فقد اتجها إلى مكان السيدات لحمايتهن ، ولكن العبيد ما لبثوا أن حاصروا هذا المكان ، واستمر حصارهم حتى اليوم الخامس عشر من ذى القعدة ، حيث استأمن مهنا وخرج إلى الأحول فأخذ منه ميثاقاً شديداً على الحرائر الصليحيات وعلى من بقى من بنى الصليحي وسواهم وحلف له أغلظ الإيمان بأنه سيطلق سراحهن ليسرن إلى صنعاء ، فوثق بقوله ، ونقل السيدات إلى دار أخرى ، ولكن الأحول غدر بالرجال فقتلهم عن آخرهم ، ونهب كل ما كان فى الدار من أموال جلية القدر وسائر ما يدخره الملوك ، وكان الصليحي قد أعدها لينفقها على الجيش والحجاج والمسلمين وعلى البيت الحرام . ويروى التاريخ أنهم غنموا ألف فارس وثلاثة آلاف جمل بعددها وعدتها .

هنا سألت الملكة السيدة الحرة أسماء بنت شهاب سعيداً

الأحول أن يسمح لها ومن معها من النساء بالعودة إلى صنعاء ، فامتنع ، وسار بهن إلى زبيد ومعه رأسا الملك على الصليحي وأخيه عبد الله محمولين على رحلين أمام هودج الملكة أسماء ، وقد نُصب الزحمان أمام الشباك الذي تنظر منه الملكة الحرة أسماء في المدار التي حلت بها ، إلا أن سعيداً بذل ما استطاع من الجهد في سبيل المحافظة وصيانة السيدات الصليحيات .

يتبين من مجريات الأمور ومن الحوادث التاريخية التي تدور حول هذا الموضوع أن الصليحي لم يكن يرغب الحج لذاته ، بل كان له برنامج إصلاحى " حافل بالأعمال والخيرات أراد تطبيقه بحزم وجد ، وبعضه يتعلق بالمساعي الخيرية لتسهيل الحج وعمارة الآثار وحفظ المون وإجراء الأنهار ، والبعض الآخر يتعلق بالاستعداد لزيارة إمامه المستنصر بالله الفاطمي ، ولكنه ما لبث أن ذهب ضحية خيانة عبيده وتهاونه باتخاذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة العدو ، وجهل عماله بما يحزى في المناطق والأقاليم من استعدادات وتأهبات .

هذا وقد اختلف المؤرخون في تحديد السنة التي قتل فيها الصليحي ، كما اختلفوا من قبل في السنة التي تولى فيها ، فقال البعض : إن قتله كان في سنة ٤٧٣ هـ وقال البعض الآخر : إن ذلك حدث في سنة ٤٥٩ هـ ، والصواب هو التاريخ

الأخير. كما ورد في الوثائق المعاصرة ، وهي السجلات المستنصرية .
ولابد من القول : ونحن في طريقنا لإسدال ستار على تاريخ
هذا الرجل العظيم الذي استطاع تأسيس دولة كبرى في اليمن ،
إن عهده يعدّ بالنسبة لتاريخ اليمن من العهود الزاهرة ،
وإنه من الرجال الذين قل أن يجود الدهر بمثلهم ، وذلك
لأن البلاد اليمنية لم تجتمع لملك واحد ، بل كان الرئيس
منهم يملك إقليماً صغيراً أو حصناً ، ثم يأتي من هو أقوى
منه فينتزعه ، وكانت البلاد تعاني فوضى الإمارات الصغيرة
المتنازعة ، وذلك يخالف ما عمل وخطط له الصليحي ،
فقد تمكن من جمع اليمن كله تحت لواء واحد ، ويرى عُثمارة :
أن هذا أمر لم يعهد في جاهلية ولا في إسلام ، وبين ذلك
العرشى بكتابه « باوغ المرام » بقوله : « ولم يقع لأحد فيمن
ملك اليمن ما وقع لعلی بن محمد الصليحي ، فإنه استولى على
اليمن سهله وجبله وشماله وجنوبه وشرقه في مدة يسيرة ، بعد
أن قهر أعداءه ، فهو لذلك لا يقل في نظرنا عن بعض القواد
الفتاحين الذين لمع اسمهم على صفحات التاريخ بما أحرزوه
من انتصارات ، وما قاموا به من فتوحات وأعمال مجيدة ،
وإن يك ذلك لمدة وجيزة » .

ومن هنا نرى أنه حكم البلاد حكماً مطلقاً ، كما كان

في العصور الوسطى ، ولكنه كان حكماً مستنيراً عادلاً قائماً
 على أسس حكيمة يتجلى فيها السمو والرفعة ، فكانت أمور
 الدولة والدعوة الإسماعيلية مركزة في شخصه تقيده بالمثل
 التي قررهما لنفسه من إقامة الحق وإقرار العدل . هذا من جهة ،
 ومن جهة أخرى فإنه من الناحية الدينية ظهر على صفحات
 تاريخ اليمن داعياً إسماعيلياً متمسكاً بأهداب الدين حريصاً
 على تعاليم الإسلام غير مكره أحداً على الدخول في عقيدته ،
 ولكنه لم يكن يرفض لأحد أن يتهاون بفرائض الدين ، ومع ذلك
 اتهم كما اتهم من قبله الأئمة الفاطميون بالكفر والخروج
 على الدين الإسلامي . والغريب أنهم اتهموه بالإباحية وتعطيل
 الشرائع ، وهو الذي كان يحجج إلى مكة ويعمر طرقها
 ويؤمن للناس القيام بفرائضهم ، وهذا هو المؤرخ الفاسي يقول
 في كتابه « تحفة الكرام » : « فطابت قلوب الناس ،
 ورخصت الأسعار ، وأمنت الحجاج أمناً لم يعرف له مثيل من
 قبل ، حتى إنهم كانوا يعتمرون ليلاً ونهاراً ، وأموالهم
 محفوظة ورحالهم محروسة » . ويقول ابن الجوزي في مرآة
 الزمان : « فرد بنى شعبة عن قبائح أعمالهم وأفعالهم مع الحجاج
 ورد إلى البيت من الحلّى ما كان بنو الطيب الأشراف قد
 سلبوه ، كما ملكوا الديار المقدسة بعد شكر الحسيني وكانوا

قد عروا البيت والميزاب .

ومهما يكن من أمر فإن ما قام به الملك على الصليحي في الأراضي المقدسة أكسبه ثقة الكثيرين من البلدان الإسلامية . فإن ما جلبه إليها من الأقوات جعل الألسن تلهج بالدعاء له في كل مكان . والحقيقة أننا نستبعد أن يكون كلام المغرضين صحيحاً ، لأن تاريخ الصليحيين لا يدلنا على شيء مما ذكروا ، والصليحيون الإسماعيليون كانوا يتخذون من الدين الإسلامي الحنيف ، ومن ولائهم لأئمتهم الفاطميين بمصر ، وسيلة لنشر نفوذهم ، وتوطيد حكمهم في البلاد التي أخضعوا لسلطانهم ، كما كان دأب الحكومات والملوك في العالم الإسلامي في ذلك العهد في تعاملهم وانتسابهم لخلافة بني العباس ، وكيف ننكر ما قاله الصليحي نفسه لأهل حراز : « فلم أطلع مسار متجبراً باغياً ولا متكبراً على البلاد عاتياً ، وإنما قيامي بالحق الذي أمر الله عز وجل به والعدل الذي أنزل في محكم كتابه »

وكان الصليحي أيضاً يتسامح مع علماء السنة متخذاً خطة التسامح الفاطمية ، لأن الفاطميين كانوا يتسامحون أيضاً ، حتى إنهم سمحوا لبعض فقهاءهم بإقامة شعائرهم ونشر تعاليمهم في المساجد ، ولقد روى التاريخ أنه في سنة ٣٨٣ هـ

وثب رجل جعفرى للجلوس فى الجامع الأزهر للفتوى على مذهب أهل البيت ، فشغب عليه الفقهاء ، من أهل الجامع فبلغ القاضى ذلك ، فقبض على بعضهم . وهذا النص يدل على أنه كان بالأزهر فى عهد الفاطميين فقهاء يخالفون المذهب الفاطمى ويفتون وفق تعاليم مذاهبيهم ، فلما جاء هذا الفقيه للفتيا على المذهب الإمامى شغبوا عليه ، فاضطر القاضى إلى إصدار الأمر بالقبض على بعضهم لا لشيء إلا لأنهم لم يتسامحوا مع هذا الفقيه كما تسامحت الدولة معهم .

وكذلك فعل أسعد بن شهاب الصليحي لما دخل زُبَيْد سنة ٤٥٦ هـ والياً عليها من قبل الصليحي ، فأحسن السيرة فى الرعية وأذن لأهل السنة بإظهار مذاهبيهم . وقد ساعدت هذه السياسة الدينية الصليحية إلى حد ما على حفظ الأمن فى البلاد الخاضعة لها ، مع وجود المعارضة القوية لمذهبيها الرسمى ، فانصرف الناس إلى أمور معاشهم مطمئنين ، وتحير المنافسون فى مقاومة هذه الدولة المتطورة العادلة المتفهمّة التى لا تمكن مقاومتها ، بعد أن رأوا من حسن سياسة الملاك الصليحي وتشدده مع الخارجين على الدين الحنيف ، ورفعته لأهل العلم والفضل مهما تكن نحلّتهم ، وتسامحه مع أهل المذاهب الإسلامية الأخرى ؛ فلم ينكر على أحد مذهباً من مذاهب فرق

الإسلام على تشعبها ، بل أقر كل امرئ على ما كان عليه .
 ومما يجدر ذكره أن الملاك على الصليحي عرف أن الشعر
 العربي يجب أن يكون السلاح الماضي في خدمة الدولة
 وأنه من أهم وسائل الدعاية لها ، فلم يشأ أن يترك هذا السلاح
 دون أن يشهره على خصومه أو يستخدمه في الدفاع عن دولته
 والمباهاة بفضائلها والإشادة بذكورها . فلا عجب بعد هذا
 إذا ما رأيناه يجزل العطاء للشعراء ، كما كان يفعل الخلفاء
 العباسيون والفاطميون ، ومن أشهر الشعراء الذين قرضوا
 الشعر في عهده « عمرو بن يحيى الهيثمي ، والحسين بن علي
 القمي ، والحسن بن أبي عقامة » .

وكان الصليحي نفسه ممن يتذوقون الشعر فصيحاً بليغاً .
 وقد روى عنه بعض الأبيات قالها في مناسبات شتى ، فمنها :
 أنكحت بعض الهند سمر رماحهم فرؤوسهم عرض النثار نثار
 وكذا العلا لا يستباح نكاحها إلا بحيث تطلق الأعمار
 ويروى أيضاً أن علي الصليحي قال عند احتلاله حصن
 وراخ المشهور :

ما اعتذاري وقد ملكت وراخا عن قراع العدا وقود الرعال
 وكانت له نفس طموح . ويقول :
 وألد من قرع المثاني عنده في الحرب أبحم يا غلام وأسرج

خيل بأقصى حضرموت مجالسها وصهيلها بين العراق ومنبج
 وكان الصليحي فرق ذلك عالماً وفقياً مستبصراً في
 علم التأويل ، كما كان خطيباً مفوهاً ، وقد وقفت على بعض
 خطبه التي ألقاها في أهل حراز وأنصار الدعوة ، وهي تبين
 مقدار بلاغته وقدرته . ولا يبعد أن تكون الخطابة قد بلغت
 مركزاً مرموقاً في عهد هذه الدواة العربية المتحضرة .

وفي الختام لابد من القول : إن علياً الصليحي وإن يكن
 مجهولاً بالنسبة للتاريخ العربي والعلمي ، فهو مؤسس مملكة
 ومقيم تعاليم ، وموجد دواة كبرى ساهمت كثيراً في بناء
 الحرية والأمن والعدالة .